المنهج الكلامي عند الخواجة نصير الدين الطوسي

محمد باقر الخرسان*

الخلاصة

يعدّ الخواجة عالمًا متضلّعًا تبوّأ مكانةً علميةً رفيعةً في العالم الإسلامي، بحيث استقى من مدرسته علماء الفريقين على حدٍّ سواءٍ. يعمد هذا البحث إلى دراسة مشروعه الفكري الكلامي، فقد عاصر الخواجة الطوسي الاحتلال المغولي للمشرق الإسلامي، والآثار المدمّرة التي ألمّت بالمسلمين وصروحهم العلمية والفكرية آنذاك، فدعاه ذلك لاتّخاذ خطواتٍ تسهم في الحفاظ على ما تبقى من التراث الإسلامي. كما أنّه عايش حقبةً زمنيةً شهدت نقدًا واسعًا للبحث الفلسفي، وظهورَ شبهاتٍ كلاميةٍ، فاستدعى ذلك منه أيضًا التصدّي لتلك الاتّهامات والشبهات عبر التأليف وكتابة الرسائل وشرح مؤلفات الآخرين، وفي هذا الإطار سعى جاهدًا إلى تأسيس علم كلامٍ إماميٍّ

(*) محمد باقر الخرسان، العراق، طالب في مرحلة الدكتوراه، جامعة الأديان والمذاهب.
alkhersan1982@gmail.com

مجـــرّدٍ من الجدل والمغالطة والزوائد. لقد ســـعى الخواجة في منهجه الكلامي إلى التوأمة بين العقل والشرع، وبيان العقائد الإمامية بشـــكلٍ ممنهجٍ ومنظّمٍ منطقيًّا، والردّ على الشبهات بأســـلوبٍ علميٍّ واستدلاليٍّ، حتّى صار منهجه العلميّ مرجعًا رصينًا يحتذى به من قِبَلِ المؤلّفين والعلماء، وهذا ما سنحاول دراسته في هذا البحث، والوقوف على أهمّ مميّزات هذا المنهج.

المفردات الدلالية: الكلام، الفلسفة، الخواجة، نصير الدين، الطوسي، تجريد الاعتقاد.

تمهيد

إنّ طائفـــةً مـــن الشـــخصيات العلمية تـــترك بصمةً واضحـــةً في مجال اختصاصهـــا، ممّا يســـتدعي من أصحاب العلـــم والمعرفة دراســـة معالم شـــخصيتها، وآثارها العلمية التي تمخّضت عنها. ومن هذه الشخصيات في العالم الإسلامي الخواجة نصير الدين الطوسي، الفقيه والفيلسوف والكلامي البارز، الذي ترك بصمةً واضحةً في المجالات العلمية والفكرية التي تناولها بالبحث والدراسة والتأليف.

وقبل أن نشرع في دراســـة مدرسة الخواجة الفكرية والكلامية، نرى من الأهمّيّة بمكانٍ أن نتناول لمحةً عن نشـــأته والشخصيات التي تتلمذ عليها، وشيّد على إثرها دعائم مشروعه المعرفي والفكري.

الولادة والاسم

هو محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي، المشـــتهر باسم الخواجة نصير الدين الطوسي والمحقّق الطوسي. ولد في طوس بخراسان، وهي مدينةٌ تقع في شمالي شرق إيران، اختلف في سنة ولادته، ولكنّ أكثر المؤلّفين يعتقدون أنّه ولد سنة 597 هـ

الدراسة

شرع الخواجة بالدراسة في طفولته، فتعلّم القرآن الكريم وبعض العلوم العربية من قبيل الصرف والنحو، وتحوّل بعد ذلك إلى دراسة الفقه والمنطق والحكمة، فأخذ الفقه عن والده وحضر مدّةً دروس خاله (نور الدين علي بن محمّدٍ) الذي تعلّم على يديه مقدّمات المنطق والحكمة. توجّه في هذه الفترة أيضًا لدراسة العلوم الرياضية من قبيل الحساب والهندسة والجبر، ويقال إنّه درس فنّ الرياضيات على يد كمال الدين محمّدٍ الحاسب من رفقاء أبيه.

ينقل عنه أنّ والده أوصاه بأن يهاجر إلى حيث الأساتذة الكبار وأرباب العلم، فبدأ برحلاته بعد وفاة أبيه؛ ليستلهم من العلماء الكبار في مختلف البلاد، حتّى استقرّ في بلدة نيشابور، التي كانت مركزًا علميًّا مهمًّا، ومكث فيها مدة يتردّد إلى مجالس فقهائها وحكمائها، حتّى صار في عنفوان شبابه بارعًا ضليعًا في أكثر الفنون والعلوم، ويبدو أنّه رحل عن تلك الديار قبل أن تتعرّض نيشابور لحملة جيش المغول الذي ألحق بها الهلاك والدمار.

ومن أساتذته أيضًا جدّه وجيه الدين محمّد بن الحسن الذي كان يعدّ من فقهاء ذلك العصر، وقد تعلّم على يديه الفقه والحديث. سمع الحديث من نصير الدين عبد الله بن حمزة الطوسي، وهو خال أبيه، وحصل منه على إجازة في روايته. وفريد الدين النيسابوري، وهو رجلٌ حكيمٌ وأصوليٌّ، عُرِف بـ الداماد، وكذلك قطب الدين المصري، وهو من ألمع تلامذة الفخر الرازي، ويبدو أنّ المترجَم له درس عنده علوم الحكمة والطب. وقد أخذ أيضًا عن كمال الدين بن يونس الموصلي شيئًا من علوم الرياضيات والحكمة، وكذا عن معين الدين المصري وهو من كبار فقهاء الشيعة، وكان الطوسيّ من تلاميذه في الفقه وأصول الفقه، كما كان مجازًا من قِبله،

وتتلمـــذ عند غيرهم ممن يطول بنا المقام عند ذكر أســـمائهم جميعا. [الأمين، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، ص 54]

وعاش الخواجـــة في حقبةٍ تاريخيـــةٍ عصفت بها الكثـــير من التحوّلات السياســـية والفكرية، بيد أنّ الغزو المغولي (616 هـ)، للمشرق الإسلامي وما رافقه من الإتيان على الصروح العلمية ومعالم الحضارة، وما تبعه من إحداث خسفةٍ فكريةٍ وحضاريةٍ كان من أبرز ما شهده عصره.

وذهب المحقّق الطوسي إلى قهستان حيث وجدها منطقةً آمنةً بعيدةً عن هجوم الأعداء، فاغتنم ناصر الدين مجيئه وأكرم مثواه واســـتفاد من وجوده في تلـــك البلاد، ولا يعلم بأيّ تاريخٍ دخل قلعة قهســـتان، ولكن لا بدّ أن يكون بعد سنة 619 هـ، إذ تسلّم من أســـتاذه سالم بن بدران إجازة الرواية، وتفرّغ المحقّق في هـــذه المنطقة للبحث والمطالعة والتحقيق، فترجم في تلك الفترة كتاب الطهارة لابن مســـكويه، وأرسله مع بعض الإضافات إلى ناصر الدين باسم (اخلاق ناصرى)، كما ألّف الرسالة الميمنية في علم الهيئة وبعض الكتب الأخرى، وبعـــد فترة من الزمن ترك المحقّق قلعة قهســـتان قاصدًا قلعة ألموت عند علاء الدين محمّد «شـــاه الإسماعيليين» وكان الخواجة هناك أيضًا مشغولًا بالتحقيق والتأليف، وكان الإسماعيليون يساعدونه في ذلك، ويوفّرون له ما يحتاج إليـــه من الكتب وغيرها، وقد التفّ حوله العلماء من أطراف البلاد وأكنافها.

في ذلك الزمان أرسل المغولي هولاكوخان إلى إيران لقمع الإسماعيليين، فسلّم ناصر الدين حاكم قلعة قهستان نفسه من دون مقاومة، كما أنّ الشاه علاء الدين الذي يســـكن قلعة ألموت أيضًا سلم نفسه بتدبير الخواجه نصير الديـــن الطوسي الذي كان وزيـــرًا له آنذاك، فلمّا ســـمع هولاكوخان بفضل

المحقّق وكماله، وعرف أنّ الشـــاه سلّم نفســـه بتدبيره قرّبه إلى نفسه، وبعد ذلك هجـــم هولاكو على بغداد واحتلّها، وبذلك انتهت خلافة العبّاســـيين بقتل آخر خليفةٍ عباسيٍّ وهو المســـتعصم بالله، واســـتطاع المحقّق الطوسي بحكمته وتدبيره أن ينقذ حياة الكثير مـــن الناس والعلماء وأهل الفضل في تلك الفترة، وأن يمنـــع من نهب الأموال، وقد ســـجّل العلماء والمؤرّخون حكاياته وإنجازاته العظيمة في التاريخ. [العاملي، أعيان الشيعة، ج 9، ص 415]

بعد فتح بغداد ســـافر الخواجة نصير الدين الطوسي إلى الحلّة الأســـدية المزيدية والتقى هناك بالمحقّق الحلّي، وعندما دخل الحلّة حضر في درسه فعطّل المحقّق درسه احترامًا لحضور الخواجة، ولكنّه بعد إصراره أتمّ درسه، ومنها رجع المحقّق الطوسيّ إلى مراغة، وتـــمّ تعيينه أن يلتزم الرصد، وبعد مضيّ سبع ســـنين من حكومة هولاكو بنى المرصد الإيلخاني باستشارة العلماء في الشمال الغربي من مدينة مراغة في مرتفعٍ من الأرض واشتهر بـ «رصد داغى» باللغة الآذريّة، أي جبل الرصد، شرع بناؤه في الرابع من جمادى الأولى سنة 657 هـ وتمّ في سنة 660 هـ، كما بنى بجنب المرصد مكتبةً كبيرةً تحوي أربعمئة ألـــف كتابٍ، فقد أمر هولاكـــو بنقل جميع الكتب الـــتي نهبت من بغداد ودمشـــق والموصل وخراســـان إلى المكتبة، كما أنّ المحقّق بنفسه كان يبعث إلى البلاد المجاورة ليشتروا الكتب العلمية ويرسلوها إليه، وفي رحلاته أيضًا كان يشتري الكتب المهمّة والآلات النجومية ويأتي بها إلى مراغة [ظ: العاملي، فلاسفة الشيعة، ص 474 و501].

وكان المحقّق يتحلّى بأخلاقٍ عاليةٍ، يذكر العلّامة الحلّي في أخلاقه بأنّه كان مـــن أفضل الناس، لا يضجر من طلبات الآخرين ولا يردّ حوائج المحتاجين، كتب شخصٌ إليه رســـالةً وصفه فيها بالكلب، فبيّن في جوابه صفات الكلب،

وأنّه لم يتّصف بتلك الصفات، كما يذكر مؤيّد الدين العرضي معاون المحقّق في المرصد في حقّه بأنّه كان يرعى العلماء أشدّ من رعاية الأب لابنه، فكنّا نسعد بلقياه، ونشـــعر بالأمن والقرار تحت رعايته، فقد جمع الله فيه الحلم وحسن السيرة والفضائل الحميدة، وكان يسدّ عنا فراغ العشيرة والوطن والأولاد.

مؤلّفاته

اشـــتهر الطوسي بكثرة التأليف والتصنيف في مختلـــف العلوم والفنون المعروفـــة في عصره، كالتاريخ والأدب والفقه والتفســـير والعقائد والحكمة والفلســـفة والعرفان والأخلاق والهندسة والحســـاب والجبر والفلك وعلم التقويم وأحكام النجوم والأســـطرلاب وغير ذلك من العلوم والفنون، وقد أصبحت مؤلّفاته مورد رغبة الطـــلاب وإقبال العلماء على امتداد قرونٍ من الزمن، وكانت باللغتين العربية والفارسية، وقد أُحصي له 260 مؤلّفًا ما بين كتابٍ وشرحٍ ورســـالةٍ، منها نحو 56 مؤلّفًا في علوم الهيئة والفلك والهندسة والجبر والحســـاب، إلّا أنّ أبرز كتبه هو كتاب (تجريـــد الاعتقاد) في مجال تبيين المنظومة العقدية الإمامية. ومن هنا ولتنوُّع نشـــاطه العلمي والفكري والتأليفي، والبصمة التي تركها في الوسط العلمي لُقِّبَ بـ (نصير الدين).

وفيما يلي نشير إلى أسماء بعض مؤلّفاته:

1ـ قواعد العقائد المعروف بالرسالة الاعتقادية والرسالة النصيرية: كتابٌ مختصرٌ في أصول العقائد.

2ـ فصولٌ نصيريةٌ: كتابٌ مختصرٌ في أصول العقائد باللغة الفارسية، كان المحقّق قد كتب فصلًا في التوحيد وبعد مدّةٍ وتبعًا لإصرار البعض أضاف إليه سائر أبواب أصول الدين، وهناك عدّة شروحٍ على هذا الكتاب.

3ـ تلخيص المحصّل أو نقد المحصّل المعروف بالتلخيص في علم الكلام: للفخر الرازي كتابٌ تحت عنوان محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين يحتوي على أربعة أقسامٍ هي: المقدّمات، تقسيم العلوم، الإلهيات، السمعيات. يقول المحقّق فيه إنّه من الكتب الأساسية والمتداولة بين الناس، ولكنّه يحتوي على مطالب غير تامّةٍ، فهذّبه وصحّحه وأهداه لعطا ملك الجويني.

4ـ رسالة الإمامة أو الوجيزة النصيرية: رسالةٌ في الإمامة دُوِّنَتْ بطلبٍ من محمّد الدين شهاب الإسلام علي بن نام آور.

5ـ رسالةٌ في بقاء نفس الإنسان المعروفة ببقاء النفس بعد فناء الجسد: كتبت هذه الرسالة بطلبٍ من مؤيّد الدين العرضي الذي كان مع المحقّق في مراغة، وهي رسالةٌ باللغة العربية ترجمت إلى اللغة الفارسية.

6ـ رسالةٌ في صدور الموجودات عن الله سبحانه وتعالى: وهي رسالةٌ باللغة العربية ألّفها المحقّق جوابًا لسؤال قاضي قضاة هرات، تبحث في كيفية صدور الموجودات من المبدإ الفيّاض وعقيدة الحكماء حول علم الله بالجزئيات.

7ـ رسالةٌ في ردّ شبهة الكاتبي على دليل الحكماء في إثبات الواجب: وهي مجموعة مكاتباتٍ متبادلةٌ بين المحقّق وعليّ بن عمر الكاتبي القزويني حول هذا الموضوع بعد أن أورد الكاتبي في رسالته بعض الشبهات على دليل الحكماء في إثبات الواجب.

8ـ رسالةٌ اعتقاديةٌ: وهي رسالةٌ مختصرةٌ تبحث في أقلّ ما يجب أن يعتقد به الشيعي، والاعتقاد به يكفي لعامّة الناس، سُمِّيَتْ هذه الرسالة في كتاب الذريعة بـ (الاعتقادات) و(أقلّ ما يجب الاعتقاد به) وفي بعض

النسخ بـ (العقيدة المفيدة)، ويحتمل أن تكون هذه الرسالة هي نفس رسالة (الوجيزة)، ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع فقد أحاله المحقّق في نهاية رسالته هذه إلى كتاب (قواعد العقائد).

وفاته

سافر المحقّق إلى بغداد في سنة 672 هـ بصحبة أباقاخان ابن هولاكو مع عددٍ من تلامذته وأصحابه إلّا أنّ أباقاخان لم يقف فيها كثيرًا، وبقي المحقق فيها ولم يمض على إقامته في بغداد شهرٌ حتّى مرض مرضًا شديدًا، وتوفي في مرضه في بغداد سنة 672 هـ، وحضر في تشييع جنازته الكثير من العلماء والأعيان، ومنهم الوزير وصاحب الديوان شمس الدين الجويني، ودفن في حرم الإمامين الكاظمين عليهما السلام في أسفل قدم الإمامين كما أوصى هو بذلك، وينقل أنّهم وجدوا محكوكًا على صخرة، تأريخ إتمام القبر، وهو اليوم الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 597 هـ، وهو تأريخ ولادة المحقّق الطوسي. [العاملي، أعيان الشيعة، ج 9، ص 415]

موقف الخواجة من مشروع نقد الفلسفة

تصدّى الخواجة لمشروع نقد الفلسفة الذي شاع في العالم الإسلامي في عصره، والعصر الذي سبقه بقوّةٍ. فقد عمد الغزالي (ت 505 هـ) في كتابه (تهافت الفلاسفة) إلى تكفير الفلاسفة [الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص 219]، ثمّ تبعه الشهرستاني (ت 548 هـ) في كتابه (مصارعة الفلاسفة) بمبارزة الفلاسفة وأفكارهم [الشهرستاني، مصارعة الفلسفة، ص 14 ـ 16]، ثمّ أعقبهما الممثّل الآخر للمدرسة الأشعرية الفخر الرازي (ت 606 هـ) في تعليقاته على كتاب (الإشارات والتنبيهات) لابن سينا في تسفيه الفلسفة ولصق اتّهامات الغيّ والفساد بأتباعهم. [الرازي، شرح عيون الحكمة لابن سينا، ج 1، ص 215]

والأخطر بين كلّ ذلك هو ما أقدم عليه الغزالي بوصفه فقيهًا؛ إذ استخدم سلاح التكفير ضدّ الفلاسفة، واعتبرهم خارجين من دائرة الإسلام في ثلاث مسائل هي:

1ـ مسألة قدم العالم، وقولهم إنّ الجواهر كلّها قديمةٌ.

2ـ أن الله ـ تعالى ـ لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص.

3ـ إنكارهم بعث الأجساد وحشرها. [الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص 219]

وقد ردّ ابن رشدٍ (ت 595 هـ) على كتاب (تهافت الفلاسفة) بكتابٍ له هو (تهافت التهافت)، بيد أنّ أثر الغزالي بقي فعّالًا في الوسط العلمي.

ومن هنا اعتبر البعض أنه «لو لم يظهر بعد الغزالي فلاسفةٌ كالسهرودي والخواجة نصير الدين الطوسي لكان الغزالي يلفّ الفلسفة بستار الاهتمال والنسيان والضياع» [مطهري، الإسلام وإيران، ج 2، ص 373].

وتصدّى الخواجة للتركة الثقيلة للغزالي ومن تبعه عبر مسار الإجابة عن الشبهات التي طرحها القائلون بتهافت الفلسفة والمناهضون لها، وعمل على تأصيل الفلسفة وردّ الاعتبار لها؛ إذ عمد إلى الردّ على مدرسة نقد الفلسفة عبر معالجة الإشكالات التي كانوا يقومون بطرحها، ومن جملتها المسائل الثلاث التي أثارها الغزالي في إخراج الفلاسفة من دائرة الإسلام.

وفيما يلي لمحةٌ من إجابات الخواجة الطوسي عن كلّ مسألةٍ:

بخصوص المسألة الأولى نفى الطوسي قدم العالم في كتابه (تجريد الاعتقاد)، إذ قال:

«والموجود إن أخذ غير مسبوقٍ بالغير أو بالعدم فقديمٌ، وإلّا فحادثٌ،

والســـبق ومقابلاه إمّا بالعلّيـــة أو بالطبع أو بالزمان أو بالرتبة الحسّـــية أو العقلية أو بالشرف أو بالذات، والحصر اســـتقرائيٌّ. ومقوليّته بالتشـــكيك، وتتحقّق الإضافـــة بين المضافـــين في أنواعه. وحيث وجـــد التفاوت امتنع جنسيته، والتقدّم دائمًا بعارضٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ أو غيرهما، والقدم والحدوث الحقيقيـــان لا يعتبر فيهما الزمان، وإلّا تسلســـل، والحدوث الذاتي متحقّقٌ. والقـــدم والحدوث اعتباران عقليان ينقطعـــان بانقطاع الاعتبار، وتصدق الحقيقية منهما» [الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص 114 و115].

وردّ الخواجة على المســـألة الثانية من خلال التأكيـــد على أنّ الواجب ـ ســـبحانه وتعالى ـ لا يعزب عن علمه مثقـــال ذرّةٍ، حيث ذكر رأيه هذا في شرحه للإشارات بقوله:

«المعلولات الذاتية للعاقل الفاعل لذاته، حاصلةٌ له من غير أن تحلّ فيه. فهو عاقلٌ إيّاها، من غير أن تكون حالّةً فيه.. ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّةٍ مـــن غير لزوم محالٍ من المحالات المذكورة. فهذا أصلٌ إن حقّقته وبســـتطته انكشف لك كيفية إحاطته ـ تعالى ـ بجميع الأشياء الكلّية والجزئية» [الطوسي، شرح الإشارات والتنبيهات، ج 3، ص 283 ـ 285].

وأمّا في المســـألة الثالثة فمن جملة ما ذكره المحقّق الطوسي أنّ «وجوب إيفاء الوعد والحكمة تقتضي وجوب البعث، والضرورة قاضيةٌ بثبوت الجسماني من دين النبيّ ﷺ مـــع إمكانه. ولا يجب إعادة فواضل المكلّف، وعدم انخراق الأفلاك، وحصول الجنّـــة فوقها، ودام الحياة والاحتراق، وتوليـــد البدن من غير التوالد. وتناهي القوى الجسمانية استبعاداتٌ» [الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص300 و301].

وهكذا قام الخواجة في مقام ردّ الاعتبار للدرس الفلسفي بالردّ على كتاب الشهرستاني (مصارعة الفلسفة) وأســـماه (مصارع المُصارع)، فيما ردّ على تعليقة الفخر الرازي على كتاب (الإشـــارات والتنبيهات) للشيخ الرئيس في

مقدّمته على شرح (الإشـــارات والتنبيهات) عبر بيـــان المآخذ التي ترد على الإشكالات التي ساقها الرازي.

ولـــم يكتف الطوسي بالردّ على إشـــكالات الرازي في شرحه للإشـــارات والتنبيهات، بل ألّف كتابًا آخر أســـماه (تلخيص المحصّل) ردّ فيه أيضًا على كتابٍ آخر للفخر الرازي هو (محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين) مؤكّدًا في مقدّمة الكتاب أنّ المحصّل ينطوي على الغثّ والسمين ما لا يُحصى، ويجعل طالب الحقّ يصل إلى السراب.

علاوةً على ما تقدّم، كان للخواجة الطوسي مؤلّفاتٌ أخرى ومراسلاتٌ عديدةٌ أجاب فيها عن الشبهات التي تســـعى إلى النيل من الفلسفة وتكفير أصحابها والتقليل من شأنها، والحديث عنها يطول والتفصيل فيها يتطلّب مجالًا آخر.

منهجه الكلامي

نشأ علم الكلام وتطور عند الشيعة الإمامية عبر مروره بمراحل عديدةٍ دعـــت إليها حاجة المســـلمين إلى صيانة معتقداتهم مـــن تهجّمات الأفكار المضادّة. فقد تمّ وضـــع اللبنات الأولى لعلم الكلام الإمامي مع عصر النصّ، ســـيّما الاختلاف على مسألة الخلافة والإمامة بين المســـلمين، وتطوّر عبر الزمن شيئًا فشيئًا مع ظهور مسائل عقديةٍ وكلاميةٍ هي محلّ اختلافٍ فكريٍّ بين الفرق والمذاهب الإسلامية.

وعند الحديث عن عصر الغيبة، فنقطة الانطلاق كانت مع الشيخ الصدوق؛ إذ قام بإملاءٍ شاملٍ وتدوينٍ منظّمٍ للمسائل العقدية من وجهة نظر الإمامية؛ ليطرحها على الآخرين بغية التعريف بعقائد مذهب أهل البيت عليهم السلام والدفاع عن حقّانيتها ودرء الشبهات عنها. [الصدوق، الاعتقادات، ص5 المقدمة]

في حين اعتبر البعض الآخر «أنّ الشـــيخ المفيد هو الشـــخص الأوّل الذي

اضطلع بمَهَمَّةِ إرساء الكلام في المذهب الشيعي على قواعد وحدودٍ منضبطةٍ، وشكّل من مجموع عقائد الشيعة نظامًا فكريًّا منسجمًا ومحدّدًا. وحاول في نظامه الفكري إيجاد الأساس المنطقي للجمع بين العقل والنقل في الكلام» [الخراساني، مقدّمة كتاب الرسائل العشر للشيخ محمّد بن الحسن بن عليٍّ الطوسي، ص 16 و17].

كما اعتبر بعض الباحثين أنّ علم الكلام لدى الشيعة الإمامية «بلغ الذروة في أواخر القرن الرابع على يد الشيخ المفيد» [ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص 465 و466].

أمّا في الحديث عن القرن السابع للهجرة فيعدّ المحقق الطوسيّ من الأسماء اللامعة، فقد أعاد لعلم الكلام تألّقه وإشعاعه وأعاد التوفيق بين الفلسفة وعلم الكلام بعدما انفصلا في فترة الجمود، ممّا أثّر على الاتّجاه الكلامي، وأضحت منهجيّة الطوسيّ في التجريد هي أساس البحوث الكلامية، حتّى أن عضد الدين الإيجي وتلميذه التفتازاني في كتابيهما (المواقف) و(المقاصد) نظرا إلى منهجية الطوسي.

يقول الشهيد مطهري في هذا الصدد: «تمكن الفيلسوف والحكيم المتبحّر الخواجة نصير الدين من تصنيف كتابٍ كلاميٍّ يعدّ من أعمق الكتب الكلامية وأتقنها، وقد حظي الكتاب باهتمام المتكلمين من الفريقين وتمكن ـ إلى حدٍّ ما ـ من نقل الكلام من أسلوب الحكمة الجدلية، والاقتراب به من أسلوب الحكمة البرهانية» [مطهري، مدخلٌ إلى العلوم الإسلامية، ج 2، ص 68]. وأصبح الكتاب محور الأبحاث الكلامية عند الشيعة والسنّة أكثر من أيّ كتابٍ آخر [مطهري، الإسلام وإيران، ج 3، ص 356].

ويذهب بعضهم الى أنّ الخواجة نصير الدين وبعد أن نقد كتاب المحصّل للفخر الرازي قام بتصنيف (تجريد الاعتقاد)؛ ليكون مرجعًا علميًّا يرجع إليه الباحثون عن الحقيقة [العلّامة الحلّي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تقديم

حســن زاده آملي، ص 4]؛ وهذا ما يظهر من كلام الخواجة نصير الدين نفســه، حيث صرّح في مقدّمته لتلخيص المحصّل: «لم يبق في الكتب التي يتداولونها من علم الأصول عيــانٌ ولا خبرٌ، ولا من تمهيد القواعد الحقيقية عينٌ ولا أثرٌ سوى كتاب (المحصّل)، الذي اسمه غير مطابقٍ لمعناه، وبيانه غير موصلٍ إلى دعواه، وفيه من الغثّ والســمين ما لا يحصى» [الطــوسي، تلخيص المحصّل، ص 21]. ومن هنا وصل الخواجة إلى قناعةٍ تامّةٍ بأنّ ما أثاره الفخر الرازي من إشــكالاتٍ في بحث الإمامة لا يمكن الردّ عليه في كتاب فلسفيٍّ، ولا بدّ من كتــابٍ كلاميٍّ يتوفّر على الإجابة عن تلك الإشــكالات التي أثارها الرازي، فعقد العزم على تصنيف كتاب (تجريد الاعتقاد).

ومــن الجدير بالذكر أنّ هناك ثلاثة مناهج معروفــةً تُتَّبَعُ عادة في تأليف الكتب العقديــة، فقد يعتمد المنهج العقلي، وقــد يتّبع المنهج النقلي بغضّ النظر عن المنهج الكلامي، كما في كتاب (الاعتقادات) للشــيخ الصدوق، فيما يعمد آخرون الى التوأمة بين المنهجين.

وقد سعى الخواجة نصير الدين الطوسي ـ من خلال تدوينه كتاب (تجريد الاعتقاد) – إلى المصالحة والحكم بين الكلام والفلسفة. ونجاحه في هذا الأمر أدّى إلى أن يضع خاتمةً للصراع بين المتكلّمين والفلاســفة، وبعده احتلّت الفلســفة مكانة الكلام في المسائل المشتركة بينهما، وذلك في أكثر المسائل، كما يشهد لذلك أكثر الكتب الكلامية اللاحقة على الخواجة. [عبوديت، النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية، ج 1، ص 27]

وقد اســتطاع الخواجة أن يردّ على مشروع نقد الفلسفة ويعطي التبرير الشرعي لدراســة الفلســفة ومناهجها، وذلك من خــلال العمل على درء التعارض الظاهري بين العقل والنقل، عبر الجمع بين الدليل العقلي والدليل النقلي في إثبات المسائل العقدية.

ويمكن القــول إنّ منهجية كتاب (تجريد الاعتقــاد) تعتبر نقطةً فارقةً ومنعطفًا بارزًا في تاريخ علم الكلام الاســلامي عامّةً والامامي خاصّةً، حيث تمكن المؤلّف من التلفيق بين الفلســفة المشائية والكلام الشيعي، ممّا أدّى إلى هدم الفجوة، والتقارب أكثر بين الفلســفة والكلام في الوسط الفكري الشيعي [احمدي، نظرةٌ إجماليةٌ على مسيرة الفلســفة بعد ابن رشدٍ، ص 224]، فالخواجة اســتطاع أن يعبّد الطريق أمــام المتكلّمين ليحذوا حذو ما ســنّه من منهجٍ كلاميٍّ، ومن هنا نرى المؤلّفات العقدية التي صنّفت بعد التجريد سارت على نهج الخواجة. [مطهري، مدخلٌ إلى العلوم الإسلامية، ج 2، ص57]

وعليه فإنّ من جملــة مميّزات المنظومة الفكريــة العقدية عند الخواجة الطــوسي هي إدخال البرهان الفلســفي إلى المنظومة الكلاميــة، حتّى قال الشــيخ مطهري: «إنّ الخواجة قرّب الكلام إلى حدٍّ كبيرٍ إلى أسلوب الحكمة البرهانية، وفي فتراتٍ لاحقةٍ فقد الكّلام أسلوبه الجدلي كلّيًا، وانضوى تحت لواء الحكمة البرهانية» [مطهري، شرح المنظومة، ج1، ص 198 ـ 229].

ولعلّ الخواجة تأثّر في مسعاه إلى التوأمة بين (المعقول والمنقول) في الكلام، بمحاولة الشــيخ المفيد في كتابه (أوائل المقالات في المذاهب والمختارات)، وابن رشد في كتابه (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتّصال).

وعلى ســبيل المثال ففي كتابه (تجريد الاعتقاد) رفع التناقض الظاهر بين العقل الذي يؤكّد امتناع إعادة المعدوم، وبين النقل الذي يؤكّد إعادة فقال:

«ويتــأول في المكلّــف بالتفريق، حيث بيّن أنّ مراده مــن الإعدام في غير المكلّفين وهم من لا يجب إعادته فلا اعتبار به، إذ لا تجب إعادته فجاز إعدامه بالكلّية فلا يعاد، وأمّا المكلّف الذي يجب إعادته فقد تأوّل معنى الإعدام بتفريق أجزائــه ولا امتناع في ذلك، واعتبر أنّ هــذا التفريق هو المقصود بالإعدام، وبالتالي يرتفع التعــارض الظاهري بين الامتناع العقلي لإعادة المعدوم، وبين

الإثبات النقلي لإعادته من خلال التغاير في مفهوم الإعدام بين النقل والعقل» [الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص 299]. واعتبر أن إعادة جميع الأجزاء بعد التفريق وتأليفها هو إعادة المعدوم، وسوّغ هذا التأويل من خلال دليلٍ نقليٍّ واضحٍ بقوله: كما في قصّة إبراهيم عليه السلام، والمقصود بها عندما سأل الله عزّ وجلّ عن كيفية إحياء الموتى، فإنّه فرّق أجزاء الطير ولم يعدمها، واعتبر إعادة جمعها حتّى أعيدت بنيتها كما كانت هو إحياء الموتى» [المصدر السابق].

وكان الخواجة يسعى في كتابه (تجريد الاعتقاد) إلى تحرير مسائل علم الكلام وفق نسقٍ ومنهجيةٍ خاصّةٍ به، امتازت من حيث التنظيم والترتيب العلمي عن المنهجيات التي سبقته، سيّما إذا ما قارنّا النظام المعتمد في كتاب (أوائل المقالات) للشيخ المفيد بكتاب (تجريد الاعتقاد). وهذا النسق الخاصّ كان يقضي بترتيب المسائل طبقًا لنظامٍ هندسيٍّ يعتمد الانتقال من المبادئ إلى المسائل، وتقسيم البحث إلى مقاصد مترابطةٍ ومتسلسلةٍ وفق ترتيبٍ منطقيٍّ يؤدّي هدفًا محدّدًا.

فمنهجه الكلامي يعتبر من حيث المحتوى من أعمق المناهج ومن حيث التنظيم فيه أبلغ نظام كما أشار نفسه إلى هذه الحقيقة بقوله في مقدّمة الكتاب: «إنّي مجيبٌ إلى ما سئلت من تحرير مسائل الكلام وترتيبها على أبلغ نظامٍ، مشيرًا إلى غرر فوائد الاعتقاد، ونكت مسائل الاجتهاد، ممّا قادني الدليل إليه، وقوى اعتقادي عليه» [الحلّي، كشف المراد، تقديم حسن زاده آملي، ص 20].

وعلى مستوى صياغة المسائل فإنّها كانت شديدة الاختصار بعباراتٍ موجزةٍ جدًّا؛ إذ لم يكتف في طيّات المسائل بإظهار رأيه أو النتيجة التي وصل إليها، بل كان يمارس عمليةً استدلاليةً منهجيةً واضحةً، ثمّ كان يشرع بعدها في مناقشة المخالفين بدون الإشارة إلى أسمائهم أو إلى انتماءاتهم المذهبية أو الفكرية. [الحسيني، الخواجة نصير الدين الطوسي.. مقاربةٌ في شخصيته وفكره، ص 224]

ويمكننا أن نضيف أنّه كان يسعى إلى تخليص علم الكلام من الجدل والمغالطة، ويؤكّد هذه الحقيقة أنّ تلميذه العلّامة الحلّي الذي يصف منهجه العلمي بقوله: «ووجدناه راكبًا نهج التحقيق، سالكًا جدد التدقيق، معرضًا على سبيل المغالبة، تاركًا طريق المغالطة» [العلامة الحلي، كشف المراد، ص11 و12].

وبعبارةٍ أخيرةٍ فإنّ مشروعه الكلامي كان يرمي إلى تأسيس علم كلامٍ يمتاز بعدّة خصائص، أوّلها: تخليصه من الجدل والمغالطة وتجريده من الزوائد؛ لذا كان أبرز كتبه العقدية شديد التعبير عن هدفه، وهو (تجريد الاعتقاد) الّذي جعل مسائله تؤدّي إلى أهدافٍ محدّدةٍ؛ لذا كانت الأبواب بعنوان (مقاصد)، وثانيها: أنّ منهجه في الاستدلال كان البرهان تارةً والبرهان المعزّز بالدليل النقلي تارةً أخرى، وفق نظامٍ منهجيٍّ ينطلق فيه من إثبات مبادئ يستند إليها لتأسيس مقدّمات مسائل يستفيد منها في إثبات عقائد كلاميةٍ.

قائمة المصادر

1. ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988 م.
2. أحمدي، أحمد، نظرةٌ إجماليةٌ على مسيرة الفلسفة بعد ابن رشد، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1997 م.
3. الأمين، حسن، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، منشورات الغدير، لبنان، 1417 هـ.
4. الحسيني، سهيل، الخواجة نصير الدين الطوسي مقاربةٌ في شخصيته وفكره، منشورات معهد المعارف الحكمية، ط 1، 2005 م.
5. الخراساني، واعظ زاده، الرسائل العشر للشيخ محمّد بن الحسن بن عليٍّ الطوسي، النشر الإسلامي، قم، ط 2.
6. الرازي، فخر الدين، شرح عيون الحكمة لابن سينا، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت.
7. الشهرستاني، عبد الكريم، مصارعة الفلسفة، تحقيق: سهير محمد مختار، بيروت، ط 1، 1976 م.
8. الصدوق، محمّد، الاعتقادات، المقدّمة، منشورات الإمام الهادي، ط 3، 1435 هـ.
9. الصدوق، محمد، الاعتقادات، مؤسّسة الإمام الهادي، قم، ط 3، 1435 هـ.
10. الطوسي، نصير الدين، تجريد الاعتقاد، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1407 هـ.
11. الطوسي، نصير الدين، تلخيص المحصّل، دار الأضواء، لبنان، 1412 هـ.
12. الطوسي، نصير الدين، شرح الإشارات والتنبيهات، منشورات جامعة طهران، ط 1، 1384 هـ. ش.
13. العاملي، عبد الله، فلاسفة الشيعة.. حياتهم وآراؤهم، دار الفكر اللبناني، بيروت.

14. العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، دار المعارف للمطبوعات، بيروت.

15. عبوديت، عبد الرســول، النظام الفلسفي لمدرسة الحكمة المتعالية، ترجمة: علي عباس الموسوي، منشورات مركز الحضارة، ط 2، بيروت، 2016 م.

16. العلّامة الحلّي، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مقدمة حسن زاده آملي، مؤسّسة النشر الإسلامي، 1431 هـ.

17. الغزالي، أبو حامد، تهافت الفلاسفة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2014 م.

18. مطهري، مرتضى، الإسلام وإيران، منظّمة الإعلام الإسلامي، قم، ط 2، 1366 هـ ش.

19. مطهري، مرتضى، دروسٌ فلسفيةٌ في شرح المنظومة، ترجمة: مالك العاملي، دار الهادي، ط 1، 2002 م.

20. مطهري، مرتضى، مدخلٌ إلى العلوم الإســلامية، ترجمة: حسن علي الهاشمي، دار الكتب الإسلامي، 2015 م.